الفصل الرابع

من أساليب التعلم والتعليم في الإسلام

عاش الرسول ﷺ مع أصحابه ، كأنه واحد منهم ، فهو كما ورد في سيرته الطاهرة ، لم يتميز عنهم ، ولم يعطِ الأوامر بالهجوم على العدو ليعود إلى مكان محصّن! إنما كان يأكل معهم ، ويمشي إلى العدو أمامهم ، ويشاركهم السراء والضراء ، لذلك قال تعالى :

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الفتح : ٢٩] .

وقد كان يعطيهم من العلوم ما يناسب مستواهم العقلي ، فللبدوي جواب يختلف عن الحضري ، وللصحابي الذي يلازم المسجد ويسمع من النبي الشيء الكثير جواباً يختلف عن الرجل الذي لا يأتي إلى المسجد إلا قليلاً .

لكن السمة البارزة لمنهجه صلوات الله عليه التعليمي هي البساطة واليسر ، والابتعاد عن التعقيد والتصنع والتشدد ، وقد أخرج أبو داود عن جابر رضي الله عنه قال : خرجنا في سفر ، فأصاب رجلاً منا حجر فشجه في رأسه ثم احتلم ، فسأل أصحابه فقال : هل تجدون لي رخصة في

التيمم ؟ فقالوا : ما نجد لك رخصة وأنت تقدر على الماء ، فاغتسل فمات ، فلما قدمنا على النبي ﷺ وأخبرناه بذلك ، قال : « قتلوه ، قتلهم الله ، ألا سألوا إذا لم يعلموا ، فإنما شفاء العيّ السؤال »[1] .

وتحدثنا سيرته الطاهرة ، أنه عليه الصلاة والسلام كان يعتمد ما يسمى اليوم (الطريقة الاستنباطية) والتي تعتمد على السؤال لاستخراج الجواب ، مثال ذلك مارواه البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها ، وإنها مثل المسلم ، فحدثوني ما هي ؟ قال : فوقع الناس في شجر البوادي ، قال عبد الله : ووقع في نفسي أنها النخلة ، ثم قالوا : حدثنا ما هي يا رسول الله ، قال : هي النخلة » .

وكان عليه الصلاة والسلام لا يدع مجالاً إلا ونبّه أو علّم أو وعظ من خلاله ، إلى درجة أنه كان إذا رأى خطأ ما أرشد إلى الصواب فوراً ، من ذلك ما رواه الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه رأى رجلاً توضأ فترك موضع ظفر على ظهر قدمه ، فأبصره النبي ﷺ فقال : « ارجع فأحسن وضوءك ، فرجع فتوضأ ثم صلى » .

وكان ﷺ يحرص على تعليم النساء ، وكان يفرغ لهن أوقاتاً لتعليمهن أمور الفقه وما إلى ذلك ، من ذلك ما رواه البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قالت النساء للنبي ﷺ : غلبنا عليك الرجال ، فاجعل لنا يوماً من نفسك ، فوعدهن يوماً لقيهن فيه ، فوعظهن ، وأمرهن ، فكان فيما قال لهن : « ما منكن امرأة تقدم ثلاثة من ولدها إلا كان لها حجاباً من النار ، فقالت امرأة : واثنين ؟ فقال : واثنين » .

---

(١) للتوسع في هذه المسألة ، يراجع كتاب « هلك المتنطعون » ، للمؤلف .

هذا إضافة إلى حضور النساء مع الرجال المواقف التي كان رسول الله ﷺ يدلي فيها بالمواعظ وتعليم أمور الدنيا والآخرة ، كصلاة العيدين ، وصلاة الجمعة ، والدروس العامة ، وخطبة عرفة ، وصلاة الاستسقاء ، ونحو ذلك .

لكن من أين لرسول الله ﷺ هذه الأساليب التي توصل العلوم إلى المستمعين أو القارئين ؟ إنها من القرآن الكريم ، حيث ـ كما رأينا ـ فإن القرآن الكريم ومنذ اللحظة الأولى للتنزل على رسول الله أمر بالتعلم عن طريق القراءة ، والقراءة هي وسيلة التعلم ومفتاح العلوم كلها ، فإن لم تكن هذه الوسيلة متوفرة للناس فإلى وسيلة ثانية هي المشافهة والتلقي ، بحيث يجلس التلميذ بين يدي أستاذه ليتلقى منه العلوم مشافهة ، ولعل ـ والله العالم ـ هذا هو القصد من توجيه القرآن الناس للنفير نحو العلم كما هو النفير نحو الجهاد في سبيل الله ، قال عز وجل : ﴿ ۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة : ١٢٢] .

ثم يأتي التوجيه القرآني إلى طلب الزيادة في العلم ، حتى لو بلغ الإنسان من الكبر عتياً! وحتى لو حمل الشهادات العليا ، فالإنسان يبقى في حالة جهل دائم ، قال تعالى : ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾ [طه : ١١٤] .

زدني علماً : لأنه كلما تعلم الإنسان وبحث وغاص بين ثنيات الكتب ، وجد نفسه أمام بحرٍ لا ساحل له ولا قرار ، ورضي الله عن الإمام الشافعي عندما قال :

كلمـــا أدَّبنـــي الـــدهـــر أرانـــي نقـــص عقلـــي!
أو أرانـــي ازددتُ علمـــاً زادنـــي علمـــاً بجهلـــي!!

والتعلم لا حرج فيه ، حتى لو كان من واحدٍ أقل مستوىً أو شهادةً

أو . . . !! لأن القرآن الكريم أورد طائفةً من الأمثلة تدل على ذلك ، كقصة موسى عليه السلام وهو واحدٌ من أولي العزم يطلب العلم من عبد من عباد الله وهو الخضر عليه السلام ، والخليل إبراهيم عليه السلام ـ وهو يحاور والده ـ يؤكد هذه المسألة كما حكى الله على لسانه : ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴾ [مريم : ٤٣] ، وسليمان عليه السلام وهو النبي الملك تعلَّم من طائر صغير هو الهدهد ، دون أي حرج ، قال تعالى : ﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ [النمل : ٢١ـ٢٣] . ووسائل تحصيل العلوم كثيرة ، ففي كل زمان ومكان هناك وسائل تختلف عن الوسائل التي كانت في الماضي ، والقرآن الكريم ركز على السمع والبصر والعقل كحواس أساسية للتعلم ، كما قال تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل : ٧٨] .

وذلك لأن العلم يأتي بالتعلم ، لذلك فمن لم يستخدم هذه الحواس للتعلّم ، فليسمع ما وصفه الله به : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٧٩] .

ومن الوسائل التعليمية المهمة ، والتي ركزت عليها الشريعة الإسلامية السؤال ، وهو أمر حسن ومطلوب ، حيث يرجع الجاهل إلى العالم وأهل الخبرة ، لأن الحلّ يكمن عند هؤلاء ، قال تعالى : ﴿ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنبياء : ٧] .

وأهل الخبرة هم الذين يجيبون عن الأسئلة والاستفسارات ، وهم

الذين يحلُّون إشكاليات العلوم ، لذلك جاء الخطاب إلى الرسول ﷺ أن يأخذ برأيهم ويسألهم : ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر : ١٤] .

وإذا عادت الأمة إلى الخبراء وأصحاب الاختصاص وأهل الذكر كان ذلك عنوان حضارتها ورقيها وازدهارها ، وإلا كانت الفتن والمشاكل ، وما إلى هنالك ، كما قال سيدنا رسول الله ﷺ في الحديث المتفق عليه : « إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من صدور الناس ، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء ، حتى إذا لم يبق عالمٌ ، اتخذ الناس رؤوساً جُهّالاً ، فَسُئلوا ، فأفتوا بغير علمٍ ، فضلُّوا وأضلُّوا » .

لكن لم هذا التشديد في السؤال لأهل الخبرة وأهل الذكر فقط ؟! .

لأن الفتوى التي تصدر عن جاهل ما قد تؤدي إلى أمورٍ لا تُرضي الله أبداً، وبالتالي قد تؤدي إلى إعدام شخص بريء ، أو رجمه، أو . . . ؟! .

من هنا فقد قام العلماء بضبط مسألة السؤال والجواب ، وحددوا بعض الآداب التي يجب أن يتحلى بها السائل والمفتي ، من ذلك مثلاً :

أن لا يكون السؤال في مسائل الفضول أو الفراغ أو المعضلات والأغلوطات وما إلى هنالك ، بل يجب أن يكون السؤال في الأمور التي تفيد السائل وتفيد الآخرين ، وقد وقع أمثلة ذلك . . جاء رجل إلى إمام دار الهجرة ـ الإمام مالك ـ رضي الله عنه وسأله : لو افترضنا أن رجلاً داس بقدمه على دجاجة ميتة فأُخرجت منها بيضة ، فأفقست البيضة عنده فرخاً . . أيأكله ؟

فأجابه الإمام مالك : سَلْ عما يكون ، ودع مالا يكون ! ![1] .

ونقل القاضي عياض رحمه الله تعالى أن : زياد بن عبد الرحمن

---

(١) ترتيب المدارك للقاضي عياض : ١/ ١٩١ .

القرطبي تلميذ الإمام مالك أتاه كتابٌ من بعض الملوك ، فلما قرأه ، كتب على قفاه كلاماً ثم أعطاه حامل الرسالة ، فسأله الجالسون عن ذلك ، فقال : لقد كتب في الكتاب يسألني : هل كفتا ميزان الأعمال يوم القيامة من ذهبٍ أو ورقٍ ـ فضة ـ فكتب إليه : حدثنا مالك ، عن ابن شهاب الأزهري قال : قال رسول الله ﷺ : « من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه »[1] .

وما أكثر الذين يسألون أسئلة لا تقدم ولا تؤخر ، ولا تضرُّ ولا تنفع ؟ من ذلك : الوحي الذي نزل على رسول الله كيف كان ؟ إنه أمانة العرض حملها جبريل عليه السلام إلى رسول الله ﷺ ، ثم : كيف حملها جبريل ؟ وعلى أي صورة رآه النبي ؟ وأين الجنة والنار ؟ ومتى الساعة ؟ ومتى يحكم المسيح ؟ ومن أفضل : عائشة أم فاطمة ؟ وكيف مات عم النبي أبو طالب ؟ وأبوا النبي ﷺ كانا على أي دين ؟ ومتى خروج المهدي ؟ و . . . . !!!

ولعل هذا النهي وارد في سياق قول الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ [المائدة : ١٠١] .

وفي ظلال حديث رسول الله ﷺ ، الذي قال فيه : « إن أعظم المسلمين في المسلمين جُرماً من سأل عن شيءٍ لم يكن حراماً ، فحُرّم من أجل مسألته » .

لذلك فلا بد من حسن السؤال . . والسماع بدقة للآخر ، لأن الفائدة تعمُّ لأهله وللآخرين ، وفي القرآن تعاليم واضحة في هذا الصدد ؛ مثال ذلك : قصة البقرة مع بني إسرائيل ، حيث جاء الأمر الإلٰهي ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ

---

(١) ترتيب المدارك : ٢/ ٣٧ .

﴿يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ [البقرة : ٦٧] . هكذا دون تحديد للمواصفات ، لكن اليهود هم المعاندون الذين لا يعرفون إلا المراوغة واللف والدوران ، والتعجيز . . . !!

ففتحوا ملف التساؤلات : ماهي ؟ مالونها ؟ لقد تشابهت الأمور علينا!! وهكذا شددوا فشدَّد الله عليهم ، قال تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ ۖ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا ۖ وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة : ٦٧-٧١] .

أما إذا سُئل الإنسان فلم يجد السائلُ عنده جواباً، فليس عيباً أن يقول: لا أدري!! لأن الإنسان مهما تعلم فستبقى هناك أمورٌ كثيرةٌ تنقصه ، وصدق الله تعالى حين قال : ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء : ٨٥] .

والملائكة الكرام كما أكد القرآن أنهم اعترفوا بأنهم جاهلون في مسألة ما ، قال تعالى :

﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة : ٣١-٣٣] .

بل وحتى الرسول الأعظم صلوات الله عليه علمه القرآن أن يعلن عدم معرفته لبعض الأمور ، قال تعالى : ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا

عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

ورضي الله عن الإمام علي عندما قال : من أخطأ قول (لا أدري) أُصيبَتْ مقاتله!

ورضي الله عن الإمام مالك ، حينما جاءه وفدٌ من كبار علماء المغرب ، فسألوه عن أربعين مسألةً ، فقال في ست وثلاثين منها : لا أدري!!

وقال في ذلك : إن الملائكة المقربين لم تستحِ حين قالت : ﴿لا عِلْمَ لنا إلاّ ما علَّمْتَنا﴾ .

ورضي الله عن عبد الله بن مسعود عندما قال : يا أيها الناس ؛ من سُئل عن علمٍ يعلمه فليقل به ، ومن لم يكن عنده علم ، فليقل : الله أعلم ، فإن من العلم أن تقول لما تعلم : الله أعلم ، إن الله قال لنبيه : ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص : ٨٦] .

وعن عقبة بن مسلم قال : صحبت ابن عمر أربعة وثلاثين شهراً ، فكثير ما كان يُسأل فيقول : لا أدري ، ثم يلتفت إليَّ فيقول : تدري ما يريد هؤلاء ؟ يريدون أن يجعلوا ظهورنا جسراً إلى جهنم!! .

* * *

والشريعة الإسلامية ركزت على الابتعاد عن الخرافة والشعوذة ، وعلى اتخاذ المنهج الاستدلالي الاستقرائي العلمي ، كذلك فقد شنت الشريعة حرباً شعواء على اتباع الهوى وتقليد الآباء والأجداد .

لذلك فلا يعتمد على قضايا الظن خاصةً في أمور العقيدة ، بل لابد من اليقين العلمي ، قال الله تعالى وهو يحدد الخط الهادف الصحيح : ﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ

﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام : ١٤٨] .

وقال تعالى وهو يدعو الناس إلى إسقاط آلهة الهوى ، وإلى العودة إلى الإله الواحد سبحانه وتعالى :

﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية : ٢٣] .

وقال الله تعالى في خطابه لنبيه داود عليه السلام :

﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [ص : ٢٦] .

وقال تعالى في خطابه لنبيه محمد ﷺ :

﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ﴾ [القصص : ٥٠] .

وأما في مجال رفض التبعية للآباء والأجداد دون إسقاط ذلك على حقائق العلم ، فالإسلام أراد للإنسان أن يفكر هو ، لا أن يفكر بعقول الآخرين ويلغي تفكيره!!

لأن من كان قبلنا فكروا لوقتهم وزمانهم ، فأخطؤوا تارةً ، وأصابوا أخرى ، فلماذا لا نقوم بذات الدور : أن نفكر لزماننا ونجرّب ، لأن الماضي ليس معصوماً أبداً .

وهذه هي مشكلة كل الذين وقفوا في وجه رسالات الله ، قال عز وجل :

﴿۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ [إبراهيم: ١٠] .

هذه هي حجّتهم في تقديس الماضي ، وإطلاق صفة العصمة على التراث ، قال تعالى : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ [الزخرف : ٢٢ـ٢٤] .

وشنَّ القرآن الكريم والسنة الطاهرة حملة قوية على التبعية للأغنياء والسادة والكبراء ، لأن ذلك تعطيل لموهبة العقل ، وسير في الظلام ، قال تعالى وهو يرسم مشهداً من الآخرة :

﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾ [الأحزاب : ٦٦ـ٦٨] .

وفي المقابل فتح الإسلام باب التأمل والنظر والتفكر في النفس والكون الفسيح ، ليتكون لدى الإنسان عقلية علمية يقينية ، تعتمد على الإدراك والحقائق ، وما أكثر آيات القرآن في هذا المجال[1] ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ ﴾

[الأعراف : ١٨٥]

وكل شيء خاضع للمناقشة والحوار ، ولا يحق لأحدٍ أن يلغي الحوار ، حتى في أدق الأمور وأكثرها حساسية ، ففي مجال التوحيد فتح باب الحوار وذلك كي لا يكون الاعتقاد ناتجاً عن وراثة أو خرافة ، إنما لابدَّ من الوصول إلى توحيد الله عن طريق القناعة : ﴿ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [النمل : ٦٤] .

---

(١) للتوسع يراجع : تفكر ساعة (حقيقة التفكر في القرآن والسنة) ، للمؤلف .

وهاهي البراهين الحسية أمامكم : ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾ [ق : ٦] .

وهاهي البراهين التاريخية : ﴿ فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [النحل : ٣٦] .

وهاهي البراهين السمعية : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ﴾ [الأعراف : ٣٢] .

وهاهي البراهين النظرية :

﴿ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [النمل : ٦٤] .

أجل : هذه بعض أساليب العلم والتعلم ، والتي دعا إليها الإسلام ، وهناك الكثير في هذا المجال ، لكن أين المستمسكون بذلك ! !

* * *